أثر التنبؤات اليهودية والمسيحية في المعتقدات الغيبية العربية قبل الإسلام

م . م عمار عبودي محمد حسين نصار
كلية الآداب / جامعة الكوفة

مدخل

جاءت الأديان السماوية مكملة للأسس الأخلاقية التي أرستها الأديان الوضعية والمعتقدات السابقة عليها ، ولتصحح المسارات والأفكار التي طرحتها تلك الأديان . (١)

كانت الغيبيات والتصورات حول المستقبل وما تخبئه الأقدار إحدى هذه الأسس التي أكملتها الأديان السماوية ، وأضفت عليها مفاهيم جديدة ؛ حولتها من مجرد ممارسات وكلمات ينفثها الكهنة ورجال الدين ، إلى دخولها في مصاف العقيدة والإيمان بها كمسلمات واقعة لأن مصدر العلم بهذه الأمور ليس الإنسان بل الله من خلال أنبيائه ورسله والكتب المنزلة عليهم .

دخلت هذه المفاهيم الجديدة مع تلك الأديان بصورة سلمية وهادئة من دون أي دور يذكر لجيش أو قوة مسلحة ، مع تأثر بثقافة المحتل كما في الدول والإمبراطوريات التي حكمت العالم القديم ، إذ الملاحظ أن دخول الأديان السماوية كان بصورة متباينة بين دين وآخر - ولا سيما الأديان التي هي مدار البحث (اليهودية والمسيحية) - التي انتشرت في الأرض العربية ، وما ذلك إلا لاختلاف المواطن التي انتشر بها كل من هذين الدينين ، مع وجود ظاهرة يستنتجها المستقرئ والراصد لموطنيهما وتنوعهما في شبه جزيرة العرب ؛ وهي أن العقيدة الدينية والمعتقدات من الأفكار كانت في الغالب تتسم بالشخصية ، أي أن الإنسان حر في ما يعتقده من الأفكار والعقائد والأديان من دون اعتراض أو تدخل من الآخرين . (٢)

أن ذلك الأمر راجع إلى عدم وجود دولة قوية وموحدة في بلاد العرب تساعد على تبني وتعميم ديانة علي حساب أخرى ، باستثناء مواطن متعددة في جنوب الجزيرة العربية وشمالها . (٣)

على وفق ما تقدم نلحظ أن الأديان السماوية قد كان لكل واحد منها مسحته ولمساته الخاصة على المفاهيم التي تركها الأسلاف على الغيب وسب التعرف على كوامنه ، ومن ثم فإن مثل هذه الأديان قد أعطت بعدا اكبر لمثل هذه المفاهيم ، إذا ما

علمنا انها قد شكلت حلقة مهمة من حلقات هذه الأديان و المنظومات الفكرية التي أسستها . (٤)

ومن ثم فإن كون الله سبحانه وتعالى هو المصدر والموجه لهذه الأديان فهو بذلك قد أعطى دفعة معنوية لها بحيث عدّ كل ما ينطقه الموحى إليه من الله عبارة حقيقة لا جدال فيها ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)) . (٥)

بعد هذا المدخل نشرع في عرض ما قدمته اليهودية والمسيحية من تصورات ومفاهيم عن الغيب وما تخبئه الأقدار ، والتنبؤات حولها :

أولا : الديانة اليهودية

كان لليهودية حضور واسع في شبه جزيرة العرب ، يدل على ذلك كثرة المستوطنات اليهودية المنتشرة هنا وهناك في ربوع الجزيرة (٦) ، والتي لم تخضع طوال تاريخها إلى أي سلطة حتى مجئ الذي قوض من سلطة هذه المستوطنات وهجر سكانها إلى بلاد الشام والعراق بعدما أمر الرسول (ص) بان لا يبقى دينان في جزيرة العرب . (٧)

نستطلع من خلال النصوص التي بين أيدينا انه كان لليهود منذ مدة تربو على أكثر من ألف سنة تصورات بدأت تظهر على معتقداتهم ، بعد أن توضحت معالمها كدين من الأديان التي اعتنقها وتبناها جمع من الناس ، فبعد أن استولى الكلدانيون على مملكتهم سنة ٥٩٨ ق . م ، وتهجير قسم كبير منهم إلى بابل (٨) ، وتشتت قسم كبير منهم في الصحراء العربية ولا سيما المنطقة الغربية والتي تقع على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشام . (٩)

زاد من هذه الهجرات اليهودية ما قامت به الإمبراطورية الرومانية من حملات تأديبية ضد اليهود في فلسطين واسترقاق رجالهم وسبي نسائهم وبيعهن (١٠) .

كان لهذه الهجرات دور فاعل في نقل أفكار اليهود ومعتقداتهم للمناطق التي استوطنوها ، إذ تمثل هذا الانتقال بعدة وسائل الأولى منها الهجرة والاستيطان في مناطق جديدة لم تطأها أرجلهم سابقا ، وتلك الجماعات المهاجرة التي استوطنت تلك المناطق قد أثرت في أفكار سكانها المحليين ومن جاورهم ، والوسيلة الثانية هي من خلال الحملات العسكرية التي شنها بعض زعماء القبائل وملوك اليمن على مناطق اليهود وواحاتهم الغنية ، إذ تشير النصوص إلى تأثير بعض أحبارهم على ملوك اليمن ولا سيما الحميريين منهم والتي انتشرت اليهودية بينهم (١١) ، فضلا عن أثر واضح للتجارة والصفقات التجارية التي كان يعقدها اليهود بين القبائل وتجارها وما تشكله هذه الظاهرة من دافع مباشر لتلاقح الأفكار وتمازجها . (١٢)

إن الذي فرض علينا هذا العرض الذي لا يخلو من بعض الإسهاب في تبيان الحقبة الزمنية التي عاشت بها اليهودية في ربوع الجزيرة العربية ، والتي من خلال معرفة طول هذه الحقبة أو قصرها سيتضح لنا مدى التأثيرات التي تركتها هذه الديانة على ذهنية العربي وتفكيره ، فضلا عن ذلك فإن لطول المدة وشدة الاختلاط أثر واضح وفاعل في نقل الأفكار بوضوح واستيعاب أكثر ، والعكس صحيح .

شكلت التنبؤات الأرضية أحدى المحاور التي أعطاها اليهود حيزا مهما من تفكيرهم وتأملاتهم ، إذ أشارت إحدى الدراسات إلى أن اليهود قد اتجهوا بسبب المضايقات التي تعرضوا لها طوال تاريخهم إلى الاهتمام والتبحر بعلوم التنجيم والفلك والطب والكيمياء والعلوم الغريبة والتبحر بها ، حتى يتسنى لهم تقديم هذه العلوم إلى من يطلبها من الحكام والأمراء والملوك الذين يسكنون في أراضيهم وممالكهم حتى يكونوا بمأمن منهم من خلال ما يقدمونه من خدمات إليهم تجعلهم فئة لا يستغنى عنهم (١٣) ، وكان من المعارف التي تحوي هذه العلوم وتجعلها من الأساسيات التي يجب على كل عصر أن يوجد من بين اليهود من يعرفها وتسمى بـ (علم القبالة (*)) ، ومن ثم فقد كان لهذا العلم فائدته المباشرة على اليهود في توظيف بعض الوسائل والأدوات والرياضات التي من خلالها أسسوا منظومة غيبية متكاملة مع نصوص حوتها التوراة تحتمل هذا التدبر والنظر فيها ؛ إذ امتلكوا مفاتيح هذه المنظومة وأسسها من خلال اتصالهم بالمجتمعات التي غزت أرضهم وهجرتهم إليها واختلطوا بها (١٤) ، إذ باتصال اليهود بالكلدانيين تنوعت معارفهم وتطورت ملكاتهم العلمية بعد أن استوطنوا مناطق العالم المتحضر آنذاك ، لأن البابليين كانوا في تلك الحقبة من أكثر الشعوب تحضرا و تطورا في العلوم والمعارف ولاسيما الفلك والتنجيم التي هي المنهل الذي نهل منه اليهود واقتبسوا تصوراتهم للمستقبل منه من خلال تطبيق الأرصاد الفلكية والطوالع النجمية التي برع بها البابليون على تنبؤات أنبيائهم . (١٥)

إن هذا التواجد اليهودي في أرض بابل صاحبه هجرة أخرى قام بها الملك نبونائيد (٦٣٩ - ٦٢٦ ق . م) إلى أرض تيماء (**) حين اتخذها عاصمة لدولته طيلة عشر سنوات ، إذ أكدت الدراسات إن هنالك قسما من اليهود كانوا من ضمن حاشية هذا الملك وأعوانه (١٦) ، ولما كانت التوراة قد أعيدت كتابتها وشكلت العديد من المدارس للبحث والمناظرة فيها في بابل كانت تيماء هي الأخرى بالنتيجة موطنا آخر لمثل هذه المدارس .(١٧)

احتوت التوراة على مجموعة من التنبؤات المستقبلية والتي مثلت ما قاله أنبياء اليهود وما تصوروه من أحداث ستجري في لاحق الأيام ، حتى وصف أحد الباحثين التأثير الذي مارسته التوراة وباقي ملاحقها على عقلية المؤمنين بها : - ولا سيما بعد السبي البابلي والتشتت على أيدي الرومان - انه قد انحصر في اتجاهين ، نهاية العالم والخلاص على يد المسيح المنتظر ، حتى كانت تأويلاتهم للمضامين الغيبية التي حوتها التوراة والنصوص المقدسة الأخرى منحصرة في هذين الاتجاهين (١٨) ، وهذه التنبؤات الغيبية قد نحتت في عقلية اليهودي بعدا وتصوروا أكثر لخياله من باقي الأديان غير السماوية ، لأن مفهوم النبوة يندرج ضمن مصطلح التنبؤ الذي هو الكشف عن الغيب والتوقع لحصول حدث معين . (١٩)

ولما كان ارتباط الشخصية المتنبئة بقوة سماوية عالمة بحقائق الأشياء ومسبباتها وهي قدرة الله ، كانت ما تتفوه به من أقوال وما تنفثه من إيماءات يعد أمرا مفروغا من مناقشته (٢٠) ؛ والذي يرصد تلك التنبؤات التي حفلت بها التوراة يرى شدة تأثيرها

على عقلية اليهودي وتصوراته ، فمنها ما ذكرته التوراة ((ويكون في آخر الأيام إن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب) (٢١) ، وكذلك ما ورد في سفر حزقيال ((ها أنا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم وأصيرهم أمة واحدة في الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون ملكا عليهم كلهم)) . (٢٢)

هذا بالنسبة إلى التنبؤات الواضحة التي حوتها التوراة ، ولكن هنالك استنتاجات عرفها دارسو التوراة والعالمون بها في عرض الأحداث التي تمر على العالم ؛ والذي يقرأ المحاورة التي جرت بين كعب الأحبار وأحد المرافقين له من العرب المسلمين حول الأحداث التي تنبأ كعب بحدوثها على أرض الشام (وقعة صفين) ؛ مستندا في ذلك على ما جاء في التوراة وتنبؤات أنبياء اليهود فتعجب المرافق له قائلا : ((أيوجد هذا في التوراة أيضا ؟)) فأجابه كعب : ((ما من شئ يحصل في الأرض إلا وفي التوراة له ذكر)) . (٢٣)

يدل هذا الكلام آنف الذكر على أن التنبؤات التي حوتها التوراة قد أعطت للتصورات عن الغيب والوسائل المتاحة للتعرف على خفاياه دفعة إلى الأمام ؛ بان تحولت الكلمات التي كان يتلفظ بعض المتنبئين بالحوادث وكهنة المعابد إلى نصوص مقدسة بعدما أخذت ترد مسندة إلى أنبياء لهم اتصال بالسماء على النقيض من سابقيهم الذين اعتمدوا على وسائط محتملة من السحر والكهانة وتسخير الأرواح في معرفة تلك الحوادث.

كل ذلك جعل من اليهود في نظر العرب أمة ذات علم ، وان أقوالهم وآراءهم تتسم بالوثوق أكثر من غيرهم (٢٤) ، والذي يلاحظ كثرة الزيارات المتبادلة بين زعماء قريش واليهود بعد أن تعاظم نفوذ الرسول (ص) وانتشرت دعوته ومحاولتهم الاستفسار منهم حول حقيقة هذا الدين وصدق الدعوى التي يدعوا لها محمد بن عبد الله (ص) وما تخبرهم كتبهم عنها (٢٥) ، وبالمقابل فإن المصادر الإسلامية قد حفلت بالكثير من النقول والاقتباسات من التوراة وكتب اليهود الأخرى وأقوال الأحبار الذين يخبرون عن ظهور نبي مصلح في آخر الزمان وفق ما أخبرت به كتبهم تلك (٢٦) ؛ وان حاول أحد الباحثين اليهود التقليل من القيمة العلمية لبعض هذه الروايات على اعتبار أنها من القصص الذي يجب أن لا يعتمد عليه اعتمادا موثقا . (٢٧)

إن رأي الباحث هذا هو مجرد قناعة شخصية حاولت فيها عقيدته أن تهيمن على نتائج دراسته ، وإلا فإن حادثة إسلام عبد الله بن سلام احد كبار أحبار اليهود بعد كلام الرسول معه ومحاورته إياه لما هو موجود في كتبهم فنزلت الآية مؤكدة كلامه صلى الله عليه وآله ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ . . .)) (٢٨) ،

فضلا عن إن توثيق احد اليهود الذين اسلموا لنصوص التوراة المبشرة بظهور النبي محمد(ص) خير شاهد على ذلك . (٢٩)

فضلا عما تقدم فإن القرآن كما لاحظنا قد اشتملت على نصوص صريحة تثبت ما تضمنته كتب الديانات المقدسة من بشارات بظهور الرسول محمد (ص) .

تأسيسا على ما قيل فإننا نلحظ أن اليهود قد احتفظوا بإرث غيبي ضخم ساعدهم في توسعته وإثراءه ما تضمنته نصوص الكتاب المقدس (التوراة) وملاحقها من الكتب المقدسة الأخرى التي لم تدخل في نص التوراة من تنبؤات وتصورات لما سيجري في لاحق الأيام على أمة بني إسرائيل وباقي الأمم . (٣٠)

إن هذا الإثراء نلمسه في الشخصيات اليهودية التي أسلمت ونهلت من هذا الإرث والتي كان لها الثر والدور البارز في تلاحق وإيصال الثقافة اليهودية إلى الفكر الإسلامي وتلاقح هاتين البنيتين بإنتاج ظاهرة ثقافية اصطلح على تسميتها بـ(الإسرائيليات) والتي كانت في حقيقة الأمر مجموعة من الأخبار والروايات التي رواها اليهود عن أنبيائهم وكتبهم وما أنتجوه من أفكار ورؤى وظفها الثقافة الإسلامية حينما أعياها البحث عن إيجاد تفسير مقنع للآيات القرآنية التي تضمنت ذكرا لأخبار بني إسرائيل وتراثهم . (٣١)

وتؤكد المصادر ان اليهود قد احتفظوا بمجموعة من الكتب والنصوص أطلق عليها (الأبوكريفا) اشتمل قسم كبيرٌ منها على نصوص أسطورية تتضمن رموزا وصورا خيالية وقصصا مستقبلية خاصة بفناء العالم ونهايته ، وهذه النصوص التي اعتبرت هي الأخرى مقدسة وأمر الآباء الأقدمون بحفظها في أماكن بعيدة عن أعين الجمهور ، وسميت أيضا بالنصوص المخفية . (٣٢)

ان هذا النوع من الكتب لم يطلع عليه العرب بصورة مباشرة بل مر بوسائط وهذه الوسائط كانت تخبر بما يتلائم به الظرف ، وذلك من خلال اليهود الذين أسلموا او الذين اتصلوا بالعرب قبل الإسلام وبعده ، واحتمل أن الكلمة التي قالها سيف بن ذي يزن آخر ملوك الدولة الحميرية (٥٧٦ - ٥٧٧ م) لعبد المطلب جد الرسول ﷺ مبشرا إياه بظهور نبي من صلبه يجمع العرب والعالم تحت دينه : ((إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون عندنا . . .)) ، (٣٣) هي من هذه الكتب ، على اعتبار إن أجداده قد اتصلوا باليهود واقتبسوا من علمهم وبعضهم قد اعتنق ديانتهم . (٣٤)

ومن ثم فان مثل هذه المسائل التي حفلت بها هذه الكتب وبينت رؤية اليهود وتصوراتهم حول نهاية العالم قد أعطتها إحدى الدراسات اللاهوتية بعدا أشمل من اقتصارها على مجرد تنبوءات نفثها بعض أنبيائهم أو أحبارهم ، إذ تقول : ((إن الله كان قد اختار إسرائيل ودعاهم لكي يحفظوا شريعته بين الناس وليتحفظوا بالرموز والنبوات التي تنبئ عن المخلص)) . (٣٥)

إن مثل هذا التحفيز قد رسخ من أسس المنظومة الغيبية التي قدمتها اليهودية لأبنائها والتي تمثلت بمجموعة من الأفكار والمفاهيم التي أخذت تروج لها وتدعو إليها ،

وهذا ما جعل اليهود أشد التصاقا من غيرهم بمثل هذه الأفكار والمفاهيم وأكثر ترويجا لها من أصحاب الديانات الأخرى .

كان وراء هذه المنظومة الغيبية انعكاس اجتماعي تمثل بالحوادث الجسام التي تعرض لها اليهود أبان السبي البابلي وما تبعه من كوارث ومحن أصابتهم على أيدي الدول والإمبراطوريات الأخرى ، وما تزامن معه من فساد في ملوك إسرائيل ويهوذا ، فكان إن أصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة الكاثرة من اليهود إن يأتي ملك فذ من نوعه ، مخلص ، معه القوة والبركة ، معجز ، يعيد الأمجاد السالفة ، فيكون هو الملك بحق (٣٦) ، وذلك بحسب ما تخبر به العلامات والدلائل من وقت ظهوره وقيامه (٣٧) ، واستعمال السبل الممكنة في تحديد هذا الوقت (علم القبالة) . (٣٨)

لم يجعل اليهود تلك الأحلام مقتصرة على أبناء جلدتهم بل أشركوا معهم فيها من أتصل بهم من القبائل والأقوام ولا سيما العرب (٣٩) ، ولكن هذا الإشراك كان لغايات وأهداف يتطلبها الظرف الذي يمر به اليهود من مضايقات وحروب او ظروف اقتصادية تجبرهم على استمالة بعض الجماعات إليها من خلال بث تلك الأفكار الغيبية التي تحتمل تفسيرات وتأويلات متعددة ، إذ يؤكد هذا المعنى احد الباحثين بالقول : ((إن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر دسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفا إليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم ، وان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة ، إذ لوحظ عليهم كثيرا أنهم متى رأوا المصلحة التودد إلى قوم قالوا لهم انتم إخواننا ونحن وانتم صنوان)) . (٤٠)

ولكن مع كل ما قيل من تأثير اليهود في بنية المجتمع العربي قبل الإسلام فان هذا المجتمع نفسه قد أثر فيهم من خلال إسباغ طابعه المعاشي عليهم . (٤١)

إن هذا الاندماج في البيئة العربية قد ولد تداخلا في جميع أنماط التفكير والتصور ومنها رؤية المستقبل والتنبؤ بما سيجري ، إذ نجدهم كما لاحظنا آنفا أنهم قد استغلوا مثل هذه المفاهيم التي برعوا في توظيفها أيما براعة من حيث النتاج والتأثير ، حتى أن هذا التأثير قد ظهر جليا في عصر الرسالة حينما احتك الإسلام باليهودية وامتشق أصحاب هاتين الديانتين الحسام بينهما ، ليسبق ذلك صراع فكري بينهما حول رفض واثبات نبوة محمد(ص) ، حتى أن الذي يلاحظ النصوص التي وصلت إلينا عن سيرة الرسول (ص) يجد أنها قد أعطتنا صورة واضحة عن هذا الصراع الذي تمخض عنه إسلام عدد من اليهود وإيمانهم بصدق الدعوة المحمدية . (٤٢)

إن هذا الصراع لم يكن الوحيد بين اليهودية وهذه الديانة الجديدة ، فقد سبق ذلك صراع بلغ أشده طيلة القرون التي تلت ميلاد السيد المسيح عليه السلام حول تطبيق النبوءات اليهودية بشخصية المنقذ على شخص السيد المسيح عليه السلام . (٤٣)

لأجل ذلك كله كانت نظرة اليهود في ذلك الوقت إلى الناس بجميع نحلهم نظرة تتسم بالارتياب والانعزال عنهم ، حتى أننا نراهم قد أحاطوا أنفسهم وعقائدهم

وأفكارهم بنوع من الغموض والتكتم عليها ، حتى لا يتسنى للآخرين من غير دياناتهم الإطلاع عليها وكشف خباياها ، على اعتبار أن شياع مثل تلك الأمور سيولد نقطة ضعف عليهم يستغلها أعداءهم وهذا ما جعلهم يتكتمون على افكارهم وتصوراتهم فلا ينشرون منها إلا ما يرونه يخدم مكانتهم ويعزز وجودهم ونفوذهم . (٤٤)

ذلك هو الأثر الذي تركته اليهودية على ذهنية معتنقيها ومن تأثر بها ، والتي شكلت منظومة غيبية بدأت تتضح ملامحها ومعالمها وتزيح ما تركته الديانات والممارسات البدائية السابقة ، لتكون تصورا جديدا تمثل بتغير رؤية الإنسان إلى المستقبل من تنبؤات وأفكار مجتزأة توارثها عن أسلافه إلى تصورات كلية مقدسة مرتبطة بخالق مهيمن هو الله من اجل تعزيز فاعليتها وجعلها أكثر أقناعا وتقبلا في أذهان الناس .

ثانيا : الديانة المسيحية

كان للمسيحية حضور أكثر في ذهنية العربي ومجتمعه قبل الإسلام من سابقتها اليهودية ، وما ذلك إلا لاعتماد هذه الديانة على أسلوب الدعوة والتبشير . (٤٥)

قدمت المسيحية كسابقتها اليهودية كتابا لمعتنقيها (الإنجيل) ، وهذا الكتاب قد حوى كسابقه نصوصا تضمنت تنبؤات واستشراف للغيب وما سيجري في المستقبل من أحداث ، حتى أن الذي يقرأ الإنجيل لا تكتمل عنده تصورات مثل هذه الأفكار إلا بقراءة نصوص التوراة . (٤٦)

أكد الإسلام من خلال القرآن الكريم على مضامين الكتاب المقدس واحتواءه على إشارات متعددة لمثل هذه التنبؤات ، ولا سيما بشارة النبي عيسى (عليه السلام) بظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ، وذلك بقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . .) . (٤٧)

لمس رجال الدين المسيحي ما تضمنته كلمات السيد المسيح (عليه السلام) من تنبؤات فانكبوا عليها يدرسون مضامينها ويستنبطون منها تصورات يقدمونها للمؤمنين تتضمن رؤية المسيحية لنهاية العالم من خلال نصوص الكتاب المقدس ، وهذا ما دفعهم إلى بدء حملة منظمة لإيضاح تلك النبوءات التي رددها السيد المسيح (عليه السلام) ، إذ تؤكد هذا الموقف إحدى الدراسات اللاهوتية التي ركزت على قضية صلب السيد المسيح وانعكاسها على الجماهير وما أثرته في بنية الفكر المسيحي بالقول : ((فمنذ يوم الصلب إلى يوم قيامته كان كثيرون ساهرون يفتشون النبوءات ، بعض منهم كانوا يفتشون الكتب ليعرفوا المعنى الكامل للعيد الذي كانوا يحتفلون به ، والبعض الآخر ليجدوا برهانا على أن يسوع ليس كما كان يدعي ، بينما غيرهم كانوا بقلوب مثقلة بالحزن يفتشون الكتب لأغراض متباينة ، فقد اقتنعوا كلهم بنفس الحق وهو

أن النبوءات قد تمت في الحوادث التي جرت في الأيام القليلة الماضية ، وان المصلوب هو فادي العالم)) . (٤٨)

إن الكلام آنف الذكر يعبر عن وجود صراع فكري غير معلن حاولت فيه كل جهة من جهات ذلك الصراع أن تبرهن على أفكارها وعقائدها أمام تيارات الآخر ، هذا من جهة ومن جهة أخرى نشاهد نصوصا مكتوبة ومسموعة لتنبؤات مستقبلية يحتفظ بها اليهود ، وهذا مما تطلب توظيف تلك التنبؤات في تأكيد وتدعيم هذه الدعوة الدينية الجديدة ، فضلا عن إسهام السيد المسيح (عليه السلام) نفسه في توظيف مثل تلك التنبؤات ، كما تشير نصوص العهد الجديد ، ومنها قوله (عليه السلام) : ((وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب ، انظروا لا ترتاعوا لأنه لابد أن تكون هذه كلها ولكن ليس المنتهى بعد)) (٤٩) ، وقال أيضا رادا على اعتراضات اليهود في إنكارهم لدعواه بالنبوة بكونه المخلص لهم (٥٠) ، بعدما بلغ الجدل بينهم وبينه (عليه السلام) أشده : ((فتشوا الكتب بأعظم اجتهاد لتروا ان كلما حدثته النبوءات عني قد تم)) . (٥١)

وقع على عاتق رجال الدين (الرهبان) مهمة إيضاح نصوص الكتاب المقدس ، فكانوا كأمثالهم من أحبار اليهود الذين حاولوا تطويع نصوص التوراة لتلائم واقع حياتهم المعيشية ، فكانت نصوص الإنجيل هي الأخرى مادة للتأويل ومصدرا لمجريات المستقبل ودستورا لحياة المسيحي على وجه البسيطة . (٥٢)

ونتيجة للصبغة العالمية التي اتسمت بها المسيحية وانتشار دعاتها والمبشرين بها في أرجاء العالم القديم ، يحاولون كسب أكبر عدد ممكن من الناس ، اصدموا وقتئذ بالمعتقدات والأفكار التي رسختها الإمبراطورية الرومانية في أذهان مواطنيها ، فكان أن حصلت حملات من الإبادات الجماعية لأصحاب الديانة الجديدة طيلة القرون الميلادية الثلاث الأولى وحتى اعتراف قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) بالديانة المسيحية ديانة رسمية للبلاد وذلك عام ٣٢٣ م في مرسوم ميلان الشهير . (٥٣)

شكلت تلك الظروف التي عاشتها المسيحية بين هذا الصراع مع اليهود من جهة وأباطرة روما الوثنيين من جهة أخرى واقعا مأساويا انعكس على تصورات المسيحيين ولا سيما رجال الدين منهم فكان بحثهم عن التنبوءات التي تضمنها الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد سلوة لهم يهربون بها من واقعهم هذا على اعتبار انه واقع لن يستمر طويلا وذلك للبشارات الموجودة في أقوال السيد المسيح (٥٤) ، مستندين في ذلك على ما قاله العهد القديم : ((ان السيد الرب لا يضع أمرا إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء)) . (٥٥)

صاحب تلك النصوص والمواقف ظهور اجتهادات جديدة في هيكلية هذه الديانة تمثلت بالاختراقات التي تعرضت لها المسيحية من خلال الهرطقات والتأويلات الفاسدة لنصوص الإنجيل والتصورات التي بدأت تأسس لقناعات حول شخصية السيد المسيح وطبيعتها (٥٦) ، مستغلين بذلك مطاطية تلك النصوص وانفتاحها ، فكان أن حاول رجال الدين المسيحي الوقوف بوجه تلك التيارات المنحرفة التي بدأت تستميل عددا لا

يستهان به من الناس ، وذلك تطبيقا منهم لوصية السيد المسيح : ((انظروا لا يضلكم أحد فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرا)) . (٥٧)

صبغ رجال الدين المسيحي حياتهم بصبغة خاصة ، وذلك استنانا منهم بسيرة السيد المسيح عليه السلام وحياته الشخصية فكانوا يشاكلونه في بساطة العيش والكفاف من الرزق وعدم الاقتران بالنساء ، فكان ان ولدت حياتهم تلك أرضية مناسبة للتأمل والانعزال عن ملذات الدنيا لكي يمكنهم ذلك خير تمكين من فهم نصوص الكتاب المقدس (٥٨) ، وذلك من خلال أديرة ابتنوها في أطراف المدن والسهول ، لتكون خير مكان لهم لتأمل العالم .

عدَّ جيبون هذه الحالة من العيش والرياضة الروحية التي زج هؤلاء الرهبان أنفسهم في فلكها باعثة على ان تتراءى أحلام ورؤى وتصورات ، شكلت مادة غزيرة في تاريخ ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) . (٥٩)

ضمت تلك الأديرة كما تشير المصادر الإسلامية على مجموعة من خزائن الكتب التي احتفظ بها الرهبان لتكون مصدرا يرجعون إليه ويدعمون ثقافتهم ، وكانت كتب التنبوءات جزءا منها ، فضلا عن وجود مقتنيات خاصة لهؤلاء الرهبان تتضمن بعض الصور والحاجيات التي كان يستعملها الأنبياء وأتباعهم (٦٠) ، حتى اننا نرى ان المسلمين في أثناء فتحهم لبلاد الشام ، قد حصلوا على مجموعة من تلك الكتب في الأديرة التي هجرها أصحابها وأصبحت تحت سيطرة المسلمين ، فمن الذين حصلوا على مثل تلك الكتب عبد الله بن عمر بن العاص (٦١) ، فكان يخبر بما سيجري على المسلمين استنادا لما ذكرته كتبه تلك . (٦٢)

ان مثل تلك النصوص لتكشف لنا عما يدور ويدرس في تلك الأديرة من ثقافة وفكر ، وهذا ما لمسه العرب ، ولا سيما الجوالون منهم في بادية الشام والعراق ، إذ تشير الروايات إلى انه قد نظروا الى هذه الأديرة من وجهتين ، الأولى : انها أمكنة للهو والطرب واحتساء الخمر والعبث (٦٣) ، والثانية أنها أمكنة للتحاور في أمور العقائد والنظر في عواقب الأمور ، ومجريات الأحداث ، وواقع الناس المعاش ، فنجد من خلال الوجهة الثانية ان معظم التصورات عن الغيب التي كانت في ذهنية العرب قبيل الإسلام هي نتيجة لاتصالهم بالرهبان المسيحيين والذين كانوا يخبرون من يتصل بهم عما يجدونه في كتبهم من أحداث ستقع على أرض العرب .. (٦٤)

دلل هذا لأمر على وجود مسلك كان يسير عليه الرهبان في اعتكافهم في صومعاتهم وأديرتهم البعيدة ، هو الشغف الذي سيطر عليهم في دراسة نصوص الكتاب المقدس ولا سيما ما يتعلق منها بالتنبوءات ، اذ عزت إحدى الدراسات هذا المسلك الى الطبيعة التأملية التي أضفاها السيد المسيح عليه السلام على أقواله وتعاليمه ، فلو كشف لهم عن تلك الحوادث الغيبية وما سيجري من أمور في المستقبل كما قد رآها ، لما استطاعت عقليتهم تحملها ، فرحمة بهم ترك لهم المجال ليدرسوا معناها بأنفسهم . (٦٥)

ان مثل هذا التركيز على التأمل في نصوص التنبؤات قد كان له أثر فاعل في إثراء المسيحية للمنظومة الغيبية التي تركتها اليهودية ، والتي أكملت ما تركته الأخيرة ، وفوق ذلك أوضحت الغامض منها ، ولا سيما ان السيد المسيح نفسه كان يقرا على مسامع تلاميذه نبوءات دانيال ويفسرها لهم ويختم قراءته لها بعبارة ((وليفهم القارئ)) . (٦٦)

ومن ثم فإن المسيحية بهذا لم تكن مجرد تعاليم دينية للمؤمنين بها ، بل تعدت ذلك الى التأسيس لتصور عن ما سيجري من احداث على هذه الأرض لاعتبار ان من علائم قرب القيامة هو رجعة السيد المسيح ، وان هذه الديانة كما ذكرنا آنفا لم تكن بمعزل عن أفكار العرب وتصوراتهم ، فالذي يرصد المساحة التي تركتها هذه الديانة في الواقع الاجتماعي العربي قبل الاسلام ليجد ان قبائل وشخصيات مهمة آمنت بهذه الديانة وتبنت أفكارها ودعت إليها وكانت حلقة وصل بينها وبين من آمن بالإسلام . (٦٧)

من كل ما تقدم نرى من خلال عرضنا لكل من هاتين الديانتين (اليهودية والنصرانية) أنهما قد وضعا أسس منظومة غيبية متكاملة استندت عليها للجدل مع الآخر المخالف لها في العقيدة ، وذلك من خلال إثبات مصدرية نصوصها على انها إيحاءات من قوة مطلقة مهيمنة مدبرة لهذا العالم ، أي الإرادة الإلهية ، عكس ما كان سائدا من توظيف بعض الممارسات البدائية للكشف عن الغيب والنظر الى ما خفي من حوادث المستقبل ، فكانت تلكما الديانتين بمنظومتهما تلك خير ملتجأ أشبع من خلاله العربي فضوله للتعرف على ما سيجري وما تخبأه الأقدار .

الهوامش

---

(١) دراز: محمد عبد الله ، الدين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢ .

(٢) علي : جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٦ م ، ٦ / ١٧ .

(٣) ينظر . اولري : دي لاسي ، جزيرة العرب قبل البعثة ، ترجمة : علي موسى الغول ، الأردن ، ١٩٩٠ م ، ص ١٠٣ - ١٢٣ ؛ بيغو لوفسكايا : نتنيا ، العرب على حدود بيزنطة وإيران ، ترجمة : صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٩٨٥ م ، ص ٧٩ - ١٣٤ .

(٤) ينظر . الطويل : توفيق ، التنبؤ بالغيب عند المسلمين ، دار إحياء الكتب ، القاهرة ، ١٩٤٥ م ، ص ١٩ .

(٥) سورة النجم ، آية ٣ ، ٤ .

(٦) ينظر . ولفستون ، إسرائيل ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، ١٩٢٧ ، ص ٣٧ .

(٧) ابن هشام : عبد الملك ، السيرة النبوية ، تحقيق : ابراهيم الأبياري وآخرون ، مصر ١٩٥٤ م ، مج ٢ / ٣٥٣ .

(٨) ينظر . يعقوب : أبراهام ، موجز تاريخ يهود بابل ، ترجمة : علي الناصري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية اللغات ، بغداد ، ٢٠٠٠ م ، ص ٥ .

(٩) علي ، المفصل ، ٦ / ٥١٣ .

(١٠) ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ٩ .

(١١) ابن حبيب : محمد ، المحبر ، تحقيق : ايلزة شتير ، المكتب التجاري ، بيروت ، لا . ت . ص ٣٦٧ .

(١٢) ينظر . علي ، المفصل ، ٦ / ٥٣٧ - ٥٣٩ ، ولفستون ، تاريخ اليهود ، ٣٥ - ٤٤ .

(١٣) ينظر . ظاظا : حسن ، الفكر الديني الإسرائيلي ، جامعة الدول العربية ١٩٧١ م ، ص ١٠٩ - ١٢٥ .

(*) القبالة : وهي فلسفة القبول ، وذلك ان الإيمان هو قبول التراث والتوفر على أداء الشعائر تعبيرا عن هذا القبول والتسليم به ، من خلال اعتبار المؤمنين ان للنصوص روحا هي التأويلات التي يستخرجها الواصلون من خلال حروف النصوص المقدسة ولاسيما حروف يهوه ، وذلك من خلال طقوس تمتد من ممارسة السحر والتنجيم إلى الفراسة والسيمياء للتعرف على ما تبطنه الأشياء أو تلك النصوص ، الحنفي ، عبد المنعم ، الموسوعة النظرية للفلسفة اليهودية ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ . ص ١٦٥ - ١٦٨ .

(١٤) ينظر . خضير ، شروق إياد ، فكرة المسيح المنتظر في الكيان الإسرائيلي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم السياسية - بغداد ٢٠٠٠ م ، ص ٥٤ - ٦٦ .

(١٥) مارغريت ، علوم البابليين ، ترجمة : يوسف حبي ، بغداد ١٩٨٢ م ، ص ٥٠ - ٥٣ .

(**) تيماء : مدينة تقع على الطريق التجاري الذي يربط بلاد الشام ببلاد اليمن وهي عبارة عن واحة تحيطها الصحراء وتكثر فيها بساتين النخيل والكروم . وقد سكنتها جماعات من اليهود ، ينظر . الحموي : ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت لا . ت ، ١ / ٢٩٨ .

(١٦) علي ، المفصل ، ٦ /

(١٧) ينظر . يعقوب ، موجز تاريخ بابل . ص ٥ - ٧ .

(١٨) ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ١٠٩ .

(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر . بيروت ١٩٦٧ م ، مادة (نبأ)

(٢٠) الطويل ، التنبؤ بالغيب ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢١) العهد القديم ، سفر أشعيا ، صح ٢ : ٢ - ٤ .

(٢٢) العهد القديم ، سفر حزقيال ، صح ٣٧ : ٢١ - ٢٣ .

(٢٣) السيوطي : أبو بكر عبد الرحمن . الخصائص الكبرى . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ١٣٢٤ هـ ، ١ / ٥٦ .

(٢٤) ينظر . الأصفهاني : أبو نعيم ، دلائل النبوة . تحقيق : محمد قلعجي ، دار ابن كثير ، حلب ١٩٧٠ ، ١/ ٢٠٨ . ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ٧١ - ٨٥ .

(٢٥) ينظر . ابن هشام ، السيرة ، مج ١ / ٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٢٦) ينظر . البيهقي ، احمد بن الحسين ، دلائل النبوة ، تحقيق : عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ ، ١ / ٢٧٣ - ٢٨٤ .

(٢٧) ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ٤٢ .

(٢٨) الأعراف ، آية ١٥٧ .

(٢٩) ينظر . ابن ربن ، علي ، الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ، تحقيق : عادل نويهض ، بيروت ١٩٧٣ م ، ص ١٣٧ - ١٧٩ ، البيهقي ، دلائل النبوة ٢ / ٥٢٦ ، ٥٣٩ .

(٣٠) ينظر . ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي . ص ٥٢ - ١٠٨ .

(٣١) ينظر . فلوتن : فان ، السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة حسن إبراهيم ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٨ - ١٢٠ .

(٣٢) ينظر . ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي . ص ٧٢ - ٧٦ .

(٣٣) ينظر . ابن هشام : عبد الملك ، التيجان في ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ ، ص ٣١٩ ، البيهقي ، دلائل النبوة ، ٢ / ١٣ .

(٣٤) ينظر . ابن هشام ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(٣٥) هوايت : الن ، مشتهى الأجيال ، ترجمة : إسحاق فرج الله ، دار الشرق الأوسط ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣ .

(٣٦) ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ١٢٧ .

(٣٧) ينظر . خضيّر ، فكرة المسيح المنتظر ، ص ٥١ .

(٣٨) ينظر . الحنفي ، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(٣٩) ينظر . فلوتن ، السيادة العربية ، ص ١١٢ ، ص١١٥ ، ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ١٠٢ .

(٤٠) ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ٧٥ .

(٤١) علي ، المفصل ، ٦ / ٥٣٢ .

(٤٢) ينظر . ابن هشام ، السيرة ، ١ / ٥١٣ - ٥٧٢ .

(٤٣) ينظر عن الصراع اليهودي المسيحي حول إثبات نبوة السيد المسيح عليه السلام . ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٤٤) ينظر . ولفستون ، تاريخ اليهود ، ص ٧٢ - ٧٨ ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٤٥) ينظر عن أثر المسيحية في المجتمع العربي قبل الإسلام . قنواتي : جورج شحاته ، المسيحية والحضارة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٤٣ - ٦٤ .

(٤٦) الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق : محمد كيلاني ، بيروت ١٩٨٠ ، ٢ / ٥٢ - ٥٣ .

(٤٧) سورة الصف ، آية ٦ .

(٤٨) هوايت ، مشتهى الأجيال ، ص ٧٤٤ - ٧٤٥ .

(٤٩) انجيل متى ، ٢٤ : ٦ .

(٥٠) هوايت ، مشتهى الأجيال ، ص ٧١٨ .

(٥١) انجيل يوحنا ، ٥ : ٣٩ .

(٥٢) قنواتي ، المسيحية والحضارة العربية ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥٣) ينظر . جيبون ، ادوارد ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة : محمد علي ابو درة ، مصر ١٩٦٩ ، ١ / ٤٠٨ - ٤٧٨ .

(٥٤) ينظر . انجيل متى ، ٢٤ : ٢ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٠ - ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٥٥) عاموس : ٢ : ٧ .

(٥٦) ينظر . جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، ١ / ٦١١ - ٦٥٩ .

(٥٧) انجيل متى ، ٢٤ : ٤ ، ٥ .

(٥٨) ينظر . شرف : محمد جلال ، سيكولوجية الحياة الروحية في المسيحية والإسلام ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٥٩) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، ٢ / ٣٣٥ .

(٦٠) ذكر البيهقي حديثا طويلا وبطرق متعددة شمل وصفا لأديرة الرهبان وصوامعهم بما تحويه من صور للأنبياء ومنها صورة الرسول محمد (ص) ، شاهدها من اتصل بهم وزار اديرتهم تلك . ينظر . دلائل النبوة ، ١ / ٣٨٤ - ٣٩٠ .

(٦١) ينظر . الكعبي : الحسن بن محمد ، قبول الأخبار ، تحقيق : محمد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٠ ، ١ / ١٩٣ - ١٩٤ .

(٦٢) ينظر . الطبري : محمد جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٢ ، ٥ / ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٦٣) ينظر . الشابشتي : علي بن محمد ، الديارات ، تحقيق : كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٠٧ ، ٢٨٩ - ٢٩٣ .

(٦٤) ينظر . علي ، المفصل ، ٦ / ٥٨٩ - ٥٩١ ، ٦٨٠ - ٦٨١ .

(٦٥) هوايت ، مشتهى الأجيال ، ص ٦٠٤ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

(٦٧) ينظر . اليعقوبي ، احمد بن واضح ، التاريخ ، النجف ١٩٦٣ ، ١ / ٢٢٧ ؛ المقدسي : محمد بن طاهر ، البدء والتاريخ، مكتبة المثنى ، بغداد ، لا . ت ، ٤ / ٣١ .